معاني الإيمان في تقلب فصول العام

بقلم
دكتور هشام عبد الجواد الزهيري



معاني الإيمان في تقلب فصول العام

دكتور / هشام عبد الجواد الزهيري



الدار العالمية للنشر والتوزيع

معاني الإيمان
في
تقلب فصول العام



الدار العالمية للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى

١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م

رقم الإيداع: ٢٠١٤/٢١٦٢م

الترقيم الدولي: I.S.B.N. 978-977-744-018-9



الدار العالمية للنشر والتوزيع

ص.ب: ٦١٠ ر.ب: ٢١١١١-٣١ ش الصالحي- محطة مصر - الإسكندرية

محمول: ٠١٠٠٥٤٠٦٤٠٣ ٢+/ ت: ٤٩٧٠٣٧٠ ٢٠٣+/ تلفاكس: ٣٩٠٧٣٠٥ ٢٠٣+

E.mail: alamia_misr@hotmail.com

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه كما يحب ربنا ويرضى

أما بعد:

فإن الله عَزَّوَجَلَّ قد جعل كل ما في الدنيا مذكرًا بالآخرة ودالًا عليها، ولكن قلةٌ من الناس هي التي تنتبه لذلك وتأخذ العبرة والعظة؛ إما إعراضًا وإما جهلًا بكيفية أخذ العبرة والعظة. ومن أحسن ما كُتب في هذا الباب ما كتبه الإمام الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه القيم **(لطائف المعارف)**، فأحببتُ نقل كلامه فيما يستفاد من تقلب فصول العام مع بعض الاختصار لتعم الفائدة، والله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

كتبه

دكتور/ هشام عبد الجواد الزهيري

قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

المجلس الأول

في ذكر فصل الربيع

خرّجا في الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «**إن أخوف ما أخاف عليكم ما يُخرِجُ الله لكم من بركات الأرض**» قيل: ما بركات الأرض؟ قال: «**زهرة الدنيا**». فقال له رجل: هل يأتي الخير بالشر؟ فصمت رسول الله ﷺ حتى ظننت أنه سينزل عليه ثم جعل يمسح على جبينه قال: «**أين السائل؟**» قال: أنا، قال: «**لا يأتي الخير إلا بالخير إن هذا المال خضرة حلوة، وإن كل ما أنبت الربيع يقتل حبطًا أو يلم إلا آكلة الخضر أكلت حتى إذا امتدت خاصرتاها استقبلت الشمس فاجترّت وثلطت وبالت ثم عادت فأكلت، وإن هذا المال خضرة حلوة، مَنْ أخذه بحقه ووضعه في حقه، فنعم المعونة هو، وإن أخذه بغير حقه كان كالذي يأكل ولا يشبع**». كان النبي ﷺ يتخوف على

أمته من فتح الدنيا عليهم فيخاف عليهم الافتتان بها. ففي الصحيحين عن عمرو بن عوف أن النبي ﷺ قال للأنصار لما جاءه مال من البحرين: **«أبشروا وأملوا ما يسركم، فوالله ما الفقر أخشى عليكم ولكن أخشى عليكم أن تبسط الدنيا عليكم ما بسطت على ما كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم»**، وكان آخر خطبة خطبها على المنبر حذر فيها من زهرة الدنيا. ففي الصحيحين عن عقبة بن عامر أن النبي ﷺ صعد المنبر فقال: **«إني لست أخشى عليكم أن تشركوا بعدي، ولكن أخشى عليكم الدنيا أن تنافسوا فيها فتقتتلوا فتهلكوا كما هلك من كان قبلكم»**، قال عقبة: فكان آخر ما رأيت من رسول الله ﷺ على المنبر. وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو أن النبي ﷺ قال: **«إذا افتتحت عليكم خزائن فارس والروم، أي قوم أنتم؟»** فقال عبد الرحمن بن عوف: نقول كما أمرنا الله عَزَّوَجَلَّ، فقال

رسول الله ﷺ: «أو غير ذلك، تتنافسون ثم تتحاسدون ثم تتدابرون ثم تتباغضون». وفي المسند عن عمر عن النبي ﷺ قال: «لا تفتح الدنيا على أحد إلا ألقى الله بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة»، قال عمرو: أنا أشفق من ذلك. وفيه أيضًا عن أبي ذر: أن أعرابيًا قال: يا رسول الله أكلتنا الضبع يعني السنة والجدب، فقال النبي ﷺ: «غير ذلك أخوف مني عليكم حين تصب عليكم الدنيا صبا، فليت أمتي لا يلبسون الذهب»، وفي رواية الديباج وفيه أيضًا عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «ما أخشى عليكم الفقر ولكني أخشى عليكم التكاثر» ويروى من حديث عوف بن مالك وأبي الدرداء عن النبي ﷺ قال: «الفقر تخافون؟! والذي نفسي بيده لتصبن عليكم الدنيا صبا حتى لا يزيغ قلب أحدكم إن أزاغه إلا هي» وفي رواية عوف: «فإن الله فاتح عليكم فارس والروم»، وفي المعنى أحاديث آخر، وفي الترمذي أنه ﷺ قال: «لكل أمة فتنة وإن فتنة أمتي المال».

فقوله ﷺ في حديث أبي سعيد: «**إن أخوف ما أخاف عليكم ما يخرج الله لكم من بركات الأرض**» ثم فسره بزهرة الدنيا ومراده: ما يُفتَح على أمته منها من ملك فارس والروم وغيرهم من الكفار الذي ورثت هذه الأمة ديارهم وأموالهم وأراضيهم التي تخرج منها زروعهم وثمارهم وأنهارهم ومعادنهم، وغير ذلك مما يخرج من بركات الأرض وهذا من أعظم المعجزات، وهو إخباره بظهور أمته على كنوز فارس والروم وأموالهم وديارهم، ووقع على ما أخبر به، ولكنه لما سمى ذلك بركات الأرض وأخبر أنه أخوف ما يخافه عليهم أشكل ذلك على بعض من سمعه حيث سماه بركة ثم خاف منه أشدّ الخوف، فإن البركة إنما هي خير ورحمة، وقد سمّى الله تعالى المال خيرًا في مواضع كثيرة من القرآن، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات:٨]، وقال: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [البقرة:١٨٠]، وقال تعالى

عن سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي﴾ [ص:٣٢]، فلما سأله السائل: هل يأتي الخير بالشر؟ صمت النبي ﷺ حتى ظنوا أنه أُوحي إليه، والظاهر أن الأمر كان كذلك، ويدل عليه أنه ورد في رواية لمسلم في هذا الحديث: «فأفاق يمسح عنه الرحضاء» -وهو العرق- وكان النبي ﷺ إذا أوحي إليه يتحدر منه مثل الجمان من العرق من شدة الوحي وثقله عليه. وفي هذا دليل على أنه ﷺ كان إذا سئل عن شيء لم يكن أوحي إليه فيه شيء انتظر الوحي فيه، ولم يتكلم فيه بشيء حتى يوحى إليه فيه. فلما نزل عليه جواب ما سئل عنه قال: **«أين السائل؟»** قال: ها أنا. فقال النبي ﷺ: **«إن الخير لا يأتي إلا بالخير»**، وفي رواية لمسلم فقال: أو خير هو؟ وفي ذلك دليل على أن المال ليس بخير على الإطلاق بل منه خير ومنه شر، ثم ضرب مثل المال ومثل من يأخذه بحقه ويصرفه في حقه، ومن يأخذه من غير حقه ويصرفه في غير حقه. فالمال

في حـق الأول خـير وفي حـق الثـاني شر، فتبين بهـذا أن المال ليس بخير مطلق بل هو خير مقيد. فإن استعان به المؤمن على مـا ينفعـه في آخرته كان خيرًا لـه وإلا كان شرًا لـه، فأما قوله عـن المال: «**إنه خضـرة حلوة**»، فقد وصف المـال والدنيا بهذا الوصـف في أحاديث كثيرة: ففـي الصحيحين عن حكيم بن حزام أنه سـأل النبي ﷺ فأعطاه، ثم سأله فقال له النبي ﷺ: «**يـا حكيم إن هذا المال خضرة حلوة فمن أخذه بسـخاوة نفس بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه وكـان كالذي يأكل ولا يشـبع**»، وفي صحيح مسـلم عن أبي سعيد الخـدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبـي ﷺ قال: «**إن الدنيا خضرة حلوة وإن الله مسـتخلفكم فيها فناظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النسـاء، فإن أول فتنة بني إسـرائيل كانت في النساء**»، واسـتخلافهم فيهـا هو ما أورثهـم الله منها ممـا كان في أيدي الأمـم مـن قبلهم كفـارس والـروم وحذرهم من فتنـة الدنيا

وفتنة النساء خصوصًا، فإن النساء أول ما ذكره الله من شهوات الدنيا ومتاعها في قوله تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ﴾ [آل عمران:١٤]. وفي المسند والترمذي عن خولة بنت قيس عن النبي ﷺ قال: «**إن هذا المال خضرة حلوة فمن أصابه بحقه بورك له فيه، ورُبَّ متخوض فيما شاءت نفسه من مال الله ورسوله ليس له يوم القيامة إلا النار**»، وفي المسند أيضًا عن خولة بنت ثامر الأنصارية عن النبي ﷺ قال: «**إن الدنيا خضرة حلوة، وإن رجالًا سيخوضون في مال الله بغير حق لهم النار يوم القيامة**»، وخرّج البخاري من قوله: «إن رجالًا...» إلى آخره، وفي المسند أيضًا عن عائشة عن النبي ﷺ قال: «**إن هذه الدنيا خضرة حلوة فمن آتيناه منها شيئًا بطيب نفس أو طيب طُعمةٍ ولا إسراف بورك له فيه، ومن آتيناه منها شيئًا**

بغير طيب نفس منا وغير طيب طُعمةٍ وإسراف منه لم يبارك له فيه»، وفي المعنى أحاديث آخر.

وقوله ﷺ: «**إن مما ينبت الربيع يقتل حبطًا أو يلم إلا آكلة الخضر**» مثل آخر ضربه ﷺ لزهرة الدنيا وبهجة منظرها وطيب نعيمها وحلاوته في النفوس، فمثله كمثل نبات الربيع وهو المرعى الخضر الذي ينبت في زمان الربيع فإنه يعجب الدواب التي ترعى فيه وتستطيبه وتكثر من الأكل منه أكثر من قدر حاجتها لاستحلائها له. فإمّا أن يقتلها فتهلك وتموت حبطًا. والحبط: انتفاخ البطن من كثرة الأكل. أو يقارب قتلها، وتلم به فتمرض منه مرضًا مخوفًا مقاربًا للموت.

فهذا مثل من يأخذ من الدنيا بشرهٍ وجوع نفس من حيث لاحت له لا بقليل يقنع ولا بكثير يشبع، ولا يحلل ولا يحرم، بل الحلال عنده ما حَلَّ بيده وقدر عليه، والحرام عنده ما

مُنع منه وعجز عنه، فهذا هو المتخوض في مال الله ورسوله فيما شاءت نفسه وليس له إلا النار يوم القيامة كما في حديث خولة المتقدم، والمراد بمال الله ومال رسوله: الأموال التي يجب على ولاة الأمور حفظها وصرفها في طاعة الله ورسوله من أموال الفيء والغنائم، ويتبع ذلك مال الخراج والجزية وكذا أموال الصدقات التي تصرف للفقراء والمساكين كمال الزكاة والوقف ونحو ذلك، وفي هذا تنبيه على أن من تخوض من الدنيا في الأموال المحرم أكلها كمال الربا ومال الأيتام الذي من أكله أكل نارًا، والمغصوب والسرقة والغش في البيوع، والخداع والمكر وجحد الأمانات، والدعاوى الباطلة ونحوها من الحيل المحرمة، أولى أن يتخوض صاحبها في نار جهنم غدًا، فكل هذه الأموال وما أشبهها يتوسع بها أهلها في الدنيا ويتلذذون بها ويتوصلون بها إلى لذات الدنيا وشهواتها، ثم ينقلب ذلك بعد موتهم فيصير جمرًا من جمر جهنم في بطونهم فما تفي لذتها بتبعتها كما قيل:

تفنى اللذاذة ممن نال لذاتها
من الحرام ويبقى الإثم والعار
تبقى عواقب سوء من مغبتها
لا خير في لذة من بعدها النار

فلهذا شبه النبي ﷺ من يأخذها بغير حقها ويضعها في غير حقها بالبهائم الراعية من خضراء الربيع حتى تتنفخ بطونها من أكله، فإما أن يقتلها وإما أن يقارب قتلها، فكذلك من أخذ الدنيا من غير حقها ووضعها في غير وجهها، إمّا أن يقتله ذلك فيموت به قلبه ودينه، وهو من مات على ذلك من غير توبة منه وإصلاح حال فيستحق النار بعمله. قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ [محمد:١٢] وهذا هو الميت حقيقة، فإن الميت من مات قلبه كما قيل:

ليس من مات فاستراح بميت
إنما الميت ميت الأحياء

وإمّا أن يقارب موته ثم يعافى وهو من أفاق من هذه السكرة وتاب قبل موته. وقد قال علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في كلامه المشهور في أقسام حملة العلم: أو منهوم باللذات سلس القياد للشهوات أو مغرىً بجمع الأموال والادخار وليسوا من رعاة الدين. أقرب شبهًا بهم الأنعام السارحة، وفي الأبيات المشهورة التي كان عمر بن عبد العزيز ينشدها كثيرًا:

نهارك يا مغرور سهو وغفلة
وليلك نوم والردى لك لازم
وتتعب فيما سوف تكره غبه
كذلك في الدنيا تعيش البهائم

وأما استثناؤه ﷺ من ذلك: «آكلة الخضر»، فمراده بذلك مثل المقتصد الذي يأخذ من الدنيا بحقها مقدار حاجته، فإذا نفذ واحتاج عاد إلى الأخذ منها قدر الحاجة بحقه، وآكلة الخضر: دويبة تأكل من الخضر بقدر حاجتها إذا احتاجت إلى الأكل، ثم تصرفه عنها فتستقبل عين الشمس فتصرف بذلك

ما في بطنها وتخرج منه ما يؤذيها من الفضلات. وقد قيل: إن الخضر ليس من نبات الربيع عند العرب إنما هو من كلاء الصيف بعد يبس العشب وهيجه واصفراره والماشية من الإبل لا تستكثر منه بل تأخذ منه قليلًا قليلًا ولا تحبط بطونها منه، فهذا مثل المؤمن المقتصد من الدنيا يأخذ من حلالها -وهو قليل بالنسبة إلى حرامها- قدر بلغته وحاجته، ويجتزي من متاعها بأدونه وأخشنه، ثم لا يعود إلى الأخذ منها إلا إذا نفذ ما عنده وخرجت فضلاته، فلا يوجب له هذا الأخذ ضررًا ولا مرضًا ولا هلاكًا بل يكون ذلك بلاغًا له، ويتبلغ به مدة حياته ويعينه على التزود لآخرته. وفي هذا إشارة إلى مدح من أخذ من حلال الدنيا بقدر بلغته وقنع بذلك، كما قال ﷺ: **«قد أفلح من هداه الله إلى الإسلام وكان عيشه كفافًا فقنع به»**، وقال ﷺ: **«خير الرزق ما يكفي»**، وقال: **«اللهم اجعل رزق آل محمد قوتًا»**.

خذ من الرزق ما كفا
ومن العيش ما صفا
كل هذا سينقضي
كسراج إذا انطفا

ثم قال ﷺ: «إن هذا المال خضرة حلوة»، فأعاده مرة ثانية تحذيرًا من الاغترار به، فخضرته بهجة منظرة، وحلاوته طيب طعمه، فلذلك تشتهيه النفوس وتسارع إلى طلبه، ولكن لو فكرت في عواقبه لهربت منه. الدنيا في الحال حلوة خضرة، وفي المآل مُرة كدرة، نعمت المرضعة وبئست الفاطمة.

إنما الدنيا نهار
ضوءه ضوء معار
بينما عيشك غض
ناعم فيه اخضرار
إذ رماه زمناه
فإذا فيه اصفرار
وكذلك الليل يأتي
ثم يمحوه النهار

مثل حرام الدنيا كشـجرة الدفلى تعجب من رآها، وتقتل من أكلها.

نرى الدنيا وزهرتها فنصبوا
وما يخلو من الشهوات قلب
فضول العيش أكثره هموم
وأكثر ما يضرك ما تحب
إذا اتفق القليل وفيه سلم
فلا ترد الكثير وفيه حرب

الذي بشر أمته بفتح الدنيا عليهـم حذرهم من الاغترار بزهرتها، وخوفهم من خضرتها وحلاوتها، وأخبرهم بخرابها وفنائهـا، وأن بـين أيديهم دارًا لا تنقطـع خضرتها وحلاوتها، فمن وقف مع زهرة هذه العاجلة انقطع وهلك، ومن لم يقف معهـا وسـار إلى تلك وصل ونجا. في المسـند عن ابن عباس: «أن النبـي ﷺ أتـاه فيما يرى النائم ملـكان فقعد أحدهما عند رأسه والآخر عند رجليه فقال أحدهما للآخر: اضرب له مثلًا

فقال: إن مثله ومثل أمته كمثل قوم سفر انتهوا إلى رأس مفازة فلم يكن معهم من الزاد ما يقطعون به المفازة ولا ما يرجعون به، فبينما هم كذلك إذا أتاهم رجل في حلة حبرة فقال: أرأيتم إن وردت بكم رياضًا معشبة وحياضًا رواء أتتبعوني؟ قالوا: نعم قال: فانطلق بهم فأوردهم رياضًا معشبة وحياضًا رواء فأكلوا وشربوا وسمنوا فقال لهم: ألم ألفكم على تلك الحال فجعلتم لي إن وردت بكم رياضًا معشبة وحياضًا رواء أن تتبعوني؟ قالوا بلى قال: فإن بين أيديكم رياضًا هي أعشب من هذه، وحياضًا هي أروى من هذه فاتبعوني، قال: فقالت طائفة: صدق والله لتتبعنه، وقالت طائفة: قد رضينا بهذا نقيم عليه»، وقد خرّجه ابن أبي الدنيا وغيره من الحسن مرسلًا بسياق أبسط من هذا وفيه: «إنهم لما رتعوا وسمنوا وأعجبهم المنزل صاح بهم فقال: ارتحلوا فإن هذه الروضة ذاهبة وإن هذا الماء غائر ذاهب، وإنّ أمامكم روضة أعشب من هذه

وماء أروى من هذا، فكره ذلك عامة الناس وقالوا: ما نريد بهذه بدلًا وهم أكثر الناس، وقال آخرون: والله إن آخر قوله كأوله ارتحلوا فأبوا، فارتحل قوم فنجوا، ولم يشعر الذين أقاموا حتى طرقهم العدو ليلًا فأصبحوا بين أسير وقتيل».

الدنيا: خضراء الدمن، ومعنى ذلك أن خضرتها نابتة على مزبلة منتنة. يا دني الهمة قنعت بروضة على مزبلة، والملك يدعوك إلى فردوسه الأعلى: ﴿أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة:٣٨] أرضيتم بخرابات البلى من الفردوس الأعلى!! يا لها من صفقة غبن، أتقنع بخسائس الحشائش والرياض معشبة بين يديك؟!

وقوله ﷺ: **«من أخذه بحقه ووضعه في حقه فنعم المعونة هو، ومن أخذه بغير حقه كان كالذي يأكل ولا يشبع»**.

تقسيم لمن يأخذ المال على قسمين:

فأحدهما- يشبه حال آكلة الخضر وهو من أخذه بحقه ووضعه في حقه، وذكر أنه نعم المعونة هو، فإنه نعم العون -لمن هذه صفته- على الآخرة كما في حديث عمرو بن العاص عن النبي ﷺ قال: «**نعم المال الصالح للرجل الصالح**»، وهو الذي يأخذه بحقه ويضعه في حقه، فهذا يوصله ماله إلى الله عَزَّوَجَلَّ؛ فمن أخذ من المال بحقه ما يقويه على طاعة الله ويستعين به عليها كان أخذه طاعة ونفقته طاعة. وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ قال: «**إنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت عليها حتى اللقمة ترفعها إلى في امرأتك**». وفي حديث آخر: «**ما أطعمت نفسك فهو لك صدقة، وما أطعمت أهلك فهو لك صدقة، وما أطعمت ولدك فهو لك صدقة، وما أطعمت خادمك فهو لك صدقة**»، فما أخذ من الدنيا بنية التقوِّي على طلب الآخرة فهو داخل في قسم إرادة الآخرة والسعي لها، لا في إرادة الدنيا والسعي لها. قال الحسن: ليس من حب الدنيا طلبك ما يصلحك فيها، ولا مِنْ زهدك فيها ترك الحاجة لا

يسـدها عنك تركها، ومـن أحب الدنيا وسرتـه ذهب خوف الآخرة من قلبه. وقال سعيد بن جبير: متاع الغرور ما يلهيك عن طلب الآخرة وما لم يلهك فليس متاع الغرور ولكنه بلاغ إلى مـا هو خير منه. وقال بعض العارفـين: كل ما أصبت من الدنيـا تريد به الدنيا فهو مذموم، وكل ما أصبت منها تريد به الآخرة فليس من الدنيا. وقال أبو سليمان: الدنيا حجاب عن الله لأعدائه، ومطية موصلة إليه لأوليائه، فسـبحان من جعل شيئًا واحدًا سببًا للاتصال به والانقطاع عنه!!

والقسـم الثاني- يشـبه حاله حـال البهائم التـي ترعى مما ينبـت الربيع «**فيقتلها حبطًا أو يلم**» وهو من يأخذ المال بغير حقه فيأخذه من الوجوه المحرمة فلا يقنع منه بقليل ولا بكثير ولا يشـبع نفسـه منه، ولهذا قال: «**وكان كالـذي يأكل ولا يشبع**»، وكان النبي ﷺ يتعوذ من نفس لا تشبع، وفي حديث زيـد بـن ثابـت عن النبـي ﷺ قال: «**مـن كانـت الدنيا همه فـرق الله عليـه أمره وجعل فقره بين عينيه ولم يأته من الدنيا**

إلا ما كتب له». فمن كان فقره بين عينيه لم يزل خائفًا من الفقر لا يستغني قلبه بشيء ولا يشبع من الدنيا، فإنّ الغنى غنى القلب والفقر فقر النفس. وفي حديث خرّجه الطبراني مرفوعًا: «**الغنى في القلب والفقر في القلب ومن كان الغنى في قلبه فلا يضره ما لقي من الدنيا، ومن كان الفقر في قلبه فلا يغنيه ما أُكثر له منها وإنما يضر نفسه**»، وعن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: «**مثل طالب الدنيا كشارب البحر كلما زاد شربًا منه زاد عطشًا حتى يقتله**». قال يحيى بن معاذ: من كان غناه في قلبه لم يزل غنيًا، ومن كان غناه في كسبه لم يزل فقيرًا. ومن قصد المخلوقين لحوائجه لم يزل محرومًا. ويشهد لذلك كله الحديث الصحيح عن النبي ﷺ: «**لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى لهما ثالثًا، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب**». لو فكر الطامع في عاقبة الدنيا لقنع، ولو نظر الجائع إلى فضول مآلها لشبع.

هب أنك قد ملكت الأرض طرًا
ودان لك العباد فكان ماذا
أليس إذًا مصيرك جوف قبر
ويحثي التراب هذا ثم هذا

وقد ضرب الله في كتابه مثل الدنيا وخضرتها ونضرتها وبهجتها وسرعة تقلبها وزوالها وجعل مثلها كمثل نبات الأرض النابت من مطر السماء في تقلب أحواله ومآله، قال الله تعالى: ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾ [الكهف:٤٥]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [يونس:٢٤]، وقال تعالى:

﴿أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرُۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ٢١]. فالدنيا وجميع ما فيها من الخضرة والبهجة والنضرة تتقلب أحواله وتتبدل ثم تصير حطامًا يابسًا، وقد عدد الله سبحانه زينة الدنيا ومتاعها المبهج في قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ [آل عمران: ١٤]، وهذا كله يصير ترابًا ما خلا الذهب والفضة ولا ينتفع بأعيانهما بل هما قيم

الأشـياء، فلا ينتفع صاحبهما بإمسـاكهما وإنما ينتفع بإنفاقهما، ولهذا قال الحسـن: بئس الرفيق الدرهـم والدينار لا ينفعانك حتى يفارقانك. وأجسام بني آدم بل وسائر الحيوانات كنبات الأرض تنقلـب من حال إلى حال ثم تجـف وتصير ترابًا، قال الله تعـالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ١٧ ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا﴾ [نوح:١٧-١٨].

فينتقـل ابـن آدم مـن الشـباب إلى الهرم و مـن الصحة إلى السقم و من الوجود إلى العدم.

مدة الشـباب قصيرة كمدة زهر الربيع وبهجته ونضارته، فإذا يبـس وابيض فقد آن ارتحاله، كما أن الزرع إذا ابيض فقد آن حصـاده. وأجمل زهور الربيع الورد ومتى كثر فيه البياض فقـد قـرب زمان انتقالـه. قال وهيب بـن الـورد: إن لله ملكًا ينادي في السماء كل يوم: أبناء الخمسين زرع دنا حصاده. وفي حديـث مرفوع: «إنّ لـكل شيء حصادًا و حصاد أمتي ما بين الستين إلى السبعين».

قد يبلغ الزرع منتهاه

لا بد للزرع من حصاد

وقد يدرك الزرع آفة قبل بلوغ حصاده فيهلك، كما أشير إليه في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَـٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ [يونس:٢٤] قال ميمون بن مهران لجلسائه: يا معشر الشيوخ ما ينتظر بالزرع إذا ابيض قالوا: الحصاد. فنظر إلى الشباب فقال: يا معشر الشباب إن الزرع قد تدركه الآفة قبل أن يستحصد. وقال بعضهم: أكثر من يموت الشباب وآية ذلك أن الشيوخ في الناس قليل.

كل ما في الدنيا فهو مذكر بالآخرة ودليل عليه؛ فنبات الأرض واخضرارها في الربيع بعد محولها ويبسها في الشتاء وإيناع الأشجار واخضرارها بعد كونها خشبًا يابسًا يدل على

بعث الموتى من الأرض. وقد ذكر الله تعالى ذلك في كتابه في مواضع كثيرة قال الله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ [الحج:٥-٧] وقال الله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ [ق:٩-١١] وقال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف:٥٧]. قال أبو رزين للنبي ﷺ: كيف يحي الله الموتى وما آية ذلك في خلقه ؟ قال: **«هل مررت بواد أهلك محلا ثم مررت به يهتز خضرا؟»** قال: نعم قال: **«كذلك يخرج الله**

الموتـى و ذلك آيته في خلقه»، خرجـه الإمام أحمد. وقصر مدة الزرع والثمار وعود الأرض بعد ذلك إلى يبسـها والشـجر إلى حالها الأول كعود ابن آدم بعد كونه حيا إلى التراب الذي خلق منه. وفصول السـنة تذكر بالآخرة: فشـدة حر الصيف يذكر بحر جهنم وهو من سمومها، وشدة برد الشتاء يذكر بزمهرير جهنم وهو من زمهريرها، والخريف يكمل فيه اجتناء ثمرات الأعمال في الآخرة، وأما الربيع فهو أطيب فصول السـنة وهو يذكر بنعيم الجنة وطيب عيشـها، وينبغي أن يحث المؤمن على الاستعداد لطلب الجنة بالأعمال الصالحة. كان بعض السلف يخـرج في أيـام الرياحـين والفواكه إلى السـوق فيقـف وينظر ويعتبر ويسـأل الله الجنة. ومر سعيد بن جبير بشباب من أبناء الملـوك جلوس في مجالسـهم في زينتهم فسـلموا عليه فلما بعد عنهـم بكى واشـتد بكاؤه وقـال: ذكرني هؤلاء بشـباب أهل الجنـة. يا هذا تزوج صلة بن أشـيم بمعـاذة العدوية وكانا من

كبار الصالحين فأدخلـه ابن أخيه الحمام ثم أدخله على زوجته في بيـت مطيب منجد، فقامـا يصليان إلى الصباح فسـأله ابن أخيـه عن حاله فقال: أدخلتني بالأمس بيتًـا أذكرتني به النار يعنـي الحمام و أدخلتني الليلة بيتًـا أذكرتني به الجنة، فلم يزل فكـري في الجنـة و النار إلى الصباح. دعا عبـد الواحد بن زيد إخوانـه إلى طعام صنعه إليهم فقام على رءوسـهم عتبة الغلام يخدمهـم و هـو صائـم و هم يأكلـون فجعلت عينـاه تهملان فسأله عبد الواحد عن سبب بكائه؟ فقال: ذكرت موائد أهل الجنة إذا أكلوا وقام الولدان على رءوسـهم. إنما خلقت الدنيا مرآة لننظر بها إلى الآخرة لا لننظر إليها ونوقف معها.

تدقيـق النظـر والفكـر في حال النبات يستدل بـه المؤمن عـلى عظمة خالقه وكمال قدرته ورحمتـه فتزداد القلوب هيمانًا في محبتـه، وإلى ذلك الإشـارة بقولـه: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا

نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام:٩٩]. زمان الربيع كله واعظ يذكر بعظمة موجده وكمال قدرته ويشوق إلى طيب مجاورته في دار كرامته كما قال ابن سمعون في وصف الربيع: أرضه حرير وأنفاسه عبير وأوقاته كلها وعظ وتذكير.

رؤي بعض الشعراء المتقدمين في المنام بعد موته فسئل عن حاله؟ فقال: غفر لي بأبيات قلتها في النرجس:

تفكر في نبات الأرض وانظر
إلى آثار ما صنع المليك
عيون من لجين ناظرات
بأحداق هي الذهب السبيك
على قضب الزبرجد شاهدات
بأن الله ليس له شريك

سبحان من سبحت المخلوقات بحمده، فملأ الأكوان تحميده وأفصحت الكائنات بالشهادة بوحدانيته، فوضح توحيده. يسبحه النبات جمعه وفريده والشجر عتيقه وجديده ويمجده. رهبان الطيور في صوامع الأشجار فيطرب السامع تمجيده. كلما درس الهزار درس شكره فالبلبل بالحمد معيده وكلما أقام خطيب الحمام النوح على الدوح هيج المستهام نوحه وتغريده: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ﴾ [العنكبوت:١٩] عجبًا للمتقلب بين مشاهدة حكمه وتناول نعمه ثم لا يشكر نعمه ولا يبصر حكمه، وأعجب من ذلك أن يُعصَي المنِعم بنعمه!! هذا عود شجر الكرم يكون يابسًا طول الشتاء ثم إذا جاء الربيع دب فيه الماء واخضر ثم يخرج الحصرم فينتفع الناس به حامضًا ويتناولون منه صبغًا واعتصارًا ثم ينقلب حلوًا فينتفع الناس به حلوًا رطبًا ويابسًا ويستخرجون منه ما ينتفعون بحلاوته طوال العام وما يأتدمون بحمضه وهو نعم الإدام، فهذه التنقلات توجب

للعاقل الدهش والتعجب من صنع صانعه وقدرة خالقه، فينبغي له أن يفرغ عقله للتفكر في هذه النعم والشكر عليها، وأما الجاهل فيأخذ العنب فيجعله خمرًا فيغطي به العقل الذي ينبغي أن يُستعمل في الفكر والشكر حتى ينسى خالقه المنعم عليه بهذه النعم كلها فلا يستطيع بعد الشرب أن يذكره أو يشكره بل ينسى من خلقه ورزقه فلا يعرفه في شكره بالكلية وهذه نهاية كفر النعم.

فواعجبا كيف يُعصَى الإله
أم كيف يجحده الجاحد
ولله في كل تحريكة
وتسكينة أبدًا شاهد
وفي كل شيء له آية
تدل على أنه الواحد

ومن وجوه الاعتبار في النظر إلى الأرض التي أحياها الله بعد موتها في فصل الربيع بما ساق إليها من قطر السماء؛ أنه

يرجى من كرمه أن يحي القلوب الميتة بالذنوب وطول الغفلة بسماع الذكر النازل من السماء، وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الحديد:١٦] إلى قوله: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الحديد:١٧]، ففيه إشارة إلى أن من قدر على إحياء الأرض بعد موتها بوابل القطر فهو قادر على إحياء القلوب الميتة القاسية بالذكر. عسى لمحة من لمحات عطفه ونفحة من نفحات لطفه، فتصلح من القلوب كل ما فسد.

عسى فرج يأتي به الله إنه
له كل يوم في خليقته أمر

إذا اشتد عسر فارجُ يسرا فإنه
قضى الله إن العسر يتبعه يسر

عسى من أحيا الأرض الميتة بالقطر أن يحي القلوب الميتة بالذكر عسى نفحة من نفحات رحمته تهب، فمن أصابته سعد سعادة لا يشقى بعدها أبدًا.

إذا مـــا تجـــدد فـــصـل الـربـيـع

تـجـدد لـلـقـلـب فـضـل الـرجـاء

عسى الحـال يصلح بعد الذنوب

كـمـا الأرض تـهـتـز بـعـد الشتاء

ومـن ذا الـذي لـيس يـرجـوك ربي

وريـــع عـطـائـك رحـــب الـفِـنـاء



المجلس الثاني

في ذكر فصل الصيف

خرجا في الصحيحين من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «**اشتكت النار إلى ربها فقالت: يا رب أكل بعضي بعضًا، فأذن لها بنفسين نفسٍ في الشتاء ونفسٍ في الصيف، فأشد ما تجدون من الحر من سموم جهنم، وأشد ما تجدون من البرد من زمهرير جهنم**». لا شك أن الله تعالى خلق لعباده دارين يجزيهم فيها بأعمالهم مع البقاء في الدارين من غير موت، وخلق دارًا معجلة للأعمال وجعل فيها موتًا وحياة وابتلى عباده فيها بما أمرهم به ونهاهم عنه وكلفهم فيها الإيمان بالغيب، ومنه: الإيمان بالجزاء والدارين المخلوقتين له وأنزل بذلك الكتب وأرسل به الرسل وأقام الأدلة الواضحة على الغيب الذي أمر بالإيمان به وأقام علامات وأمارات تدل على وجود داري الجزاء؛ فإنّ إحدى الدارين المخلوقتين للجزاء دار نعيم محض لا يشوبه ألم والأخرى دار عذاب

محض لا يشوبه راحة. و هذه الدار الفانية ممزوجة بالنعيم والألم، فما فيها من النعيم يذكر بنعيم الجنة وما فيها من الألم يذكر بألم النار. وجعل الله تعالى في هذه الدار أشياء كثيرة تذكر بدار الغيب المؤجلة الباقية، فمنها ما يذكر بالجنة من زمان ومكان، أما الأماكن فخلق الله بعض البلدان كالشام وغيرها فيها من المطاعم والمشارب والملابس وغير ذلك منَ نعيم الدنيا ما يذكر بنعيم الجنة. وأما الأزمان: فكزمن الربيع فإنه يذكر طيبه بنعيم الجنة وطيبها، وكأوقات الأسحار فإنّ بردها يذكر ببرد الجنة، وفي الحديث الذي خرجه الطبراني: «**إنّ الجنة تفتح في كل ليلة في السحر فينظر الله إليها فيقول لها: ازدادي طيبًا، لأهلك فتزداد طيبًا فذلك برد السحر الذي يجده الناس**» وروى سعيد الجريري عن سعيد بن أبي الحسن أن داود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قال: «يا جبريل أي الليل أفضل؟ قال: ما أدري غير أن العرش يهتز إذا كان من السحر ألا ترى أنه يفوح ريح كل الشجر. و منها ما يذكر بالنار؛ فإنّ الله تعالى جعل في

الدنيا أشـياء كثيرة تذكـر بالنار المعدة لمن عصـاه وما فيها من الآلام والعقوبات من أماكن وأزمان وأجسام وغير ذلك، أما الأماكـن فكثير من البلدان مفرطـة الحر أو البرد فبردها يذكر بزمهريـر جهنم وحرهـا يذكر بحر جهنم وسـمومها وبعض البقـاع يذكر بالنار كالحمام، قال أبو هريرة: «نعم البيت الحمام يدخله المؤمن فيزيل به الدرن و يستعيذ بالله فيه من النار» كان السلف يذكرون النار» بدخول الحمام فيحدث لهم ذلك عبادة. دخل ابن وهب الحمام فسـمع تاليًا يتلو: ﴿ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ ﴾ [غافر:٤٧] فغـشي عليـه. وتـزوج صلـة بن أشـيم فدخل الحمام ثم دخل على زوجته تلك الليلة فقام يصلي حتى أصبح وقال: دخلت بالأمس بيتًا أذكرني النار ودخلت الليلة بيتًـا ذكرت به الجنة فلم يزل فكري فيهما حتى أصبحت. كان بعض السـلف إذا أصابه كرب الحمام يقول: يا بر يا رحيم مُنَّ علينا وقنا عذاب السـموم. صب بعض الصالحين على رأسـه مـاء مـن الحمام فوجده شـديد الحر فبكى وقـال: ذكرت قوله

تعـالى: ﴿يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ﴾ [الحج:١٩]. كل ما في الدنيا يدل على صانعه ويذكر به ويدل على صفاته، فما فيها من نعيم وراحة يدل على كرم خالقه وفضله وإحسانه وجوده ولطفه، وما فيها من نقمة وشـدة وعذاب يدل على شدة بأسه وبطشـه وقهـره وانتقامـه، واختـلاف أحـوال الدنيـا من حر وبـرد وليل ونهار وغير ذلـك يدل على انقضائها وزوالها. قال الحسـن: كانوا يعني الصحابة يقولون: الحمد لله الرفيق الذي لو جعل هذا الخلق خلقا دائما لا ينصرف لقال الشـاك في الله: لـو كان لهذا الخلق رب لحادثه [أي لجعـل فيه أحوالًا مختلفة] وإن الله قد حادث بما ترون من الآيات أنه جاء بضوء طبق ما بين الخافقين وجعل فيها معاشًـا و﴿سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ [النبأ:١٣] ثـم إذا شـاء ذهب بذلـك الخلق وجـاء بظلمة طبقـت ما بين الخافقـين وجعل فيها سـكنًا و نجومًا وقمرًا منيرًا، وإذا شـاء بنـى بناءً جعـل فيه المطر والرعد والبرق والصواعق ما شـاء، وإن شاء صرف ذلك الخلق وإذا شاء جاء ببرد يقرقف الناس،

وإذا شـاء ذهب بذلك وجاء بحر يأخذ بأنفاس الناس؛ ليعلم النـاس أن لهـذا الخلق ربًا يحادثه بما تـرون من الآيات. كذلك إذا شاء ذهب بالدنيا وجاء بالآخرة. وقال خليفة العبدي: لو أن الله لم يعبد إلا عن رؤية ما عبده أحد ولكن المؤمنين تفكروا في مجيء هذا الليل إذا جاء فطبق كل شيء وملأ كل شيء ومحا سـلطان النهار، وتفكـروا في مجيء هذا النهـار، إذا جاء فملأ كل شيء وطبـق كل شيء ومحـا سـلطان الليـل، وتفكـروا في ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقـرة:١٦٤] و تفكـروا في ﴿وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ [البقـرة:١٦٤] وتفكروا في مجيء الشـتاء والصيف، فوالله ما زال المؤمنـون يتفكـرون فيما خلق لهـم ربهم حتى أيقنـت قلوبهم وحتـى كأنما عبدوا الله عن رؤيته. ما رأى العارفون شـيئًا من الدنيا إلا تذكروا به ما وعد الله به من جنسه في الآخرة من كل خير وعافية.

قلوب العارفين لها عيون

ترى ما لا يراه الناظرونا

وأما الأزمان فشدة الحر والبرد يذكر بما في جهنم من الحر والزمهرير، وقد دل هذا الحديث الصحيح على: أن ذلك من تنفس النار في ذلك الوقت. قال الحسن: كل برد أهلك شيئًا فهو من نفس جهنم وكل حر أهلك شيئًا فهو من نفس جهنم. وفي الحديث الصحيح أيضًا عن النبي ﷺ قال: «**إذا اشتد الحر فأبردوا عن الصلاة فإن شدة الحر من فيح جهنم**».

وفي حديث مرفوع خرجه عثمان الدارمي وغيره: «**إذا كان يوم شديد الحر، فقال العبد: لا إله إلا الله ما أشد حر هذا اليوم!! اللهم أجرني من حر جهنم قال الله لجهنم: إن عبدًا من عبادي قد استجار بي منك وقد أجرته. وإذا كان يوم شديد البرد، فقال العبد: لا إله إلا الله ما أشد برد هذا اليوم!! اللهم أجرني من زمهرير جهنم قال الله لجهنم: إن عبدًا من عبادي**

قد استجار بي من زمهريرك وإني أشهدك أني قد أجرته. قالوا وما زمهرير جهنم قال: بيت يلقى فيه الكافر فيتميز من شدة برده» أبواب النار مغلقة وتفتح أحيانا فتفتح أبوابها كلها عند الظهيرة ولذلك يشتد الحر حينئذ فيكون في ذلك تذكرة بنار جهنم. وأما الأجسام المشاهدة في الدنيا المذكرة بالنار، فكثيرة منها الشمس عند اشتداد حرها وقد روي أنها خلقت من النار وتعود إليها. وخرج الطبراني بإسناده أن رجلًا في عهد النبي ﷺ نزع ثيابه ثم تمرغ في الرمضاء وهو يقول لنفسه: ذوقي!! نار جهنم أشد حرًا. جيفة بالليل بطال بالنهار فرآه النبي ﷺ فقال: يا رسول الله غلبتني نفسي فقال النبي ﷺ: **«لقد فتحت لك أبواب السماء وباهى الله بك الملائكة»**. وأما البروز للشمس تعبدًا بذلك فغير مشروع؛ فإنّ النبي ﷺ قال لأبي اسرائيل لما رآه قائمًا في الشمس: فأمره أن يجلس ويستظل وكان نذر أن يقوم في الشمس مع الصوم فأمره أن يتم صومه

فقـط. وإنما يشرع البروز للشـمس للمحرم كـما قال ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا لمحرم رآه قد اسـتظل: أضحِ لمن أحرمت له أي ابرز إلى الضحاء وهو حر الشمس.

ومـما يؤمر بالصبر فيه على حر الشـمس النفـر للجهاد في الصيـف كما قال تعالى عن المنافقين: ﴿ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴾ [التوبة:٨١] وكذلك في المشي إلى المساجد للجمع والجماعات وشهود الجنائز ونحوها مـن الطاعات والجلوس في الشـمس لانتظـار ذلك حيث لا يوجـد ظل. خرج رجل من السـلف إلى الجمعة فوجد الناس قد سبقوه إلى الظل فقعد في الشمس فناداه رجل من الظل أن يدخـل إليه فأبـى أن يتخطى الناس لذلـك ثم تلا: ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [لقمان:١٧] كان بعضهم إذا رجـع من الجمعة في حر الظهيرة يذكر انصراف الناس من موقـف الحسـاب إلى الجنـة أو النار؛ فإنّ السـاعة تقوم في يوم الجمعة ولا ينتصف ذلك النهار حتى يقيل أهل الجنة في الجنة

وأهل النار في النار، قاله ابن مسعود وتلا قوله: ﴿ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ يَوۡمَئِذٍ خَيۡرٞ مُّسۡتَقَرّٗا وَأَحۡسَنُ مَقِيلٗا ﴾ [الفرقان:٢٤]، وينبغي لمن كان في حر الشمس أن يتذكر حرها في الموقف فإن الشمس تدنو من رؤوس العباد يوم القيامة ويزاد في حرها، وينبغي لمن لا يصبر على حر الشمس في الدنيا أن يجتنب من الأعمال ما يستوجب صاحبه به دخول النار فإنه لا قوة لأحد عليها ولا صبر. قال قتادة: وقد ذكر شراب أهل جهنم وهو ماء يسيل من صديدهم من الجلد واللحم فقال: هل لكم بهذا يدان أم لكم عليه صبر؟! طاعة الله أهون عليكم يا قوم، فأطيعوا الله ورسوله.

رأى عمر بن عبد العزيز قومًا في جنازة قد هربوا من الشمس إلى الظل وتوقوا الغبار فبكى ثم أنشد:

من كان حين تصيب الشمس جبهته

أو الغبار يخاف الشين والشعثا

ويـألـف الـظـل كـي يُـبـقـي بشاشته
فـسـوف يـسـكـن يـومًـا راغـمـا جدثا
في ظــل مـقـفـرة غـــبراء مظلمة
يطيل تحت الـثـرى فـي غمها اللبثا
تجــهــزي بجــهــاز تـبـلـغـين بـه
يا نفس قبل الـردى لم تخلقي عبثًا

ومما يضاعف ثوابه في شدة الحر من الطاعات: الصيام لما فيه من ظمأ الهواجر، ولهذا كان معاذ بن جبل يتأسف عند موته على ما يفوته من ظمأ الهواجر، وكذلك غيره من السلف، وروي عن أبي بكر الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه كان يصوم في الصيف ويفطر في الشتاء. ووصى عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عند موته ابنه عبد الله فقال له: عليك بخصال الإيمان وسمى أولها: الصوم في شدة الحر في الصيف. قال القاسم بن محمد: كانت عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا تصوم في الحر الشديد قيل له: ما حملها على ذلك؟ قال: كانت تبادر الموت. وكان مجمع التيمي يصوم في

الصيف حتى يسقط. وكانت بعض الصالحات تتوخى أشد الأيام حرا فتصومه فيقال لها في ذلك فتقول: إن السعر إذا رخص اشتراه كل أحد. تشير إلى أنها لا تؤثر إلا العمل الذي لا يقدر عليه إلا قليل من الناس لشدته عليهم، وهذا من علو الهمة. كان أبو موسى الأشعري في سفينة فسمع هاتفا يهتف: يا أهل المركب قفوا يقولها ثلاثًا، فقال أبو موسى: يا هذا كيف نقف ألا ترى ما نحن فيه كيف نستطيع وقوفا، فقال الهاتف: ألا أخبركم بقضاء قضاه الله على نفسه؟ قال: بلى أخبرنا قال: فإن الله قضى على نفسه أنه من عطش نفسه لله في يوم حار كان حقًّا على الله أن يرويه يوم القيامة، فكان أبو موسى يتوخى ذلك اليوم الحار الشديد الحر الذي يكاد الإنسان ينسلخ منه فيصومه. قال كعب: إن الله تعالى قال لموسى: إني آليت على نفسي أنه من عطش نفسه لي أن أرويه يوم القيامة. وقال غيره: مكتوب في التوراة طوبى لمن جوَّع نفسه ليوم الشبع الأكبر، طوبى لمن عطش نفسه ليوم الري

الأكبر. قال الحسن: تقول الحوراء لولي الله وهو متكىء معها على نهر الخمر في الجنة تعاطيه الكأس في أنعم عيشه: أتدري أي يوم زوجنيك الله؟ إنه نظر إليك في يوم صائف بعيد ما بين الطرفين وأنت في ظمأ هاجرة من جهد العطش، فباهى بك الملائكة وقال: انظروا إلى عبدي ترك زوجته ولذته وطعامه وشرابه من أجلي رغبة فيما عندي! اشهدوا أني قد غفرت له فغفر لك يومئذ وزوجنيك. لما سار عامر بن عبد قيس من البصرة إلى الشام كان معاوية يسأله أن يرفع إليه حوائجه فيأبى فلما أكثر عليه قال: حاجتي أن ترد عليّ من حر البصرة لعل الصوم أن يشتد علي شيئًا؛ فإنه يخف علي في بلادكم. نزل الحجاج في بعض أسفاره بماء بين مكة والمدينة فدعا بغدائه ورأى أعرابيًّا فدعاه إلى الغداء معه فقال: دعاني من هو خير منك فأجبته قال: ومن هو؟ قال: الله تعالى دعاني إلى الصيام فصمت قال: في هذا الحر الشديد؟ قال: نعم صمت ليوم أشد منه حرا قال: فأفطر وصم غدا قال: إن ضمنت لي البقاء

إلى غد قال: ليس ذلك إلي قال: فكيف تسألني عاجلا بآجل لا تقدر عليه. خرج ابن عمر في سفر معه أصحابه فوضعوا سفرة لهم فمر بهم راع فدعوه إلى أن يأكل معهم قال: إني صائم. فقال ابن عمر: في مثل هذا اليوم الشديد حره وأنت بين هذه الشعاب في آثار هذه الغنم وأنت صائم؟ فقال: أبادر أيامي هذه الخالية فعجب منه ابن عمر. فقال له ابن عمر: هل لك أن تبيعنا شاة من غنمك ونطعمك من لحمها ما تفطر عليه ونعطيك ثمنها قال: إنها ليست لي إنها لمولاي. قال: فما عسيت أن يقول لك مولاك إن قلت أكلها الذئب، فمضى الراعي وهو رافع أصبعه إلى السماء وهو يقول: فأين الله؟! فلم يزل ابن عمر يردد كلمته هذه، فلما قدم المدينة بعث إلى سيد الراعي فاشترى منه الراعي والغنم فأعتق الراعي ووهب له الغنم. نزل روح بن زنباع منزلا بين مكة والمدينة في حر شديد فانقض عليه راع من جبل فقال له: يا راع هلم إلى الغداء قال: إني صائم قال: أفتصوم في هذا الحر؟ قال: أفأدع أيامي تذهب

باطـلًا!! فقـال روح: لقد ضننت بأيامك يـا راعي إذ جاد بها روح بـن زنباع. كان ابن عمر يصوم تطوعًا فيغشـى عليه فلا يفطر. وكان الإمام أحمد يصوم حتى يكاد يغمى عليه فيمسح على وجهه الماء وسئل عن من يصوم فيشتد عليه الحر قال: لا بـأس أن يبل ثوبًا يتبرد به ويصـب عليه الماء و«كان النبي ﷺ بالعرج يصب على رأسـه المـاء وهو صائـم» وكان أبو الدرداء يقـول: صومـوا يومًـا شـديدًا حره لحر يـوم النشـور وصلوا ركعتين في ظلمة الليل لظلمة القبور. وفي الصحيحين عن أبي الـدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: لقد رأيتنا مع رسـول الله ﷺ في بعض أسفاره في اليوم الحار الشديد الحر وإن الرجل ليضع يده على رأسه من شدة الحر وما في القوم أحد صائم إلا رسول الله ﷺ وعبد الله بن رواحة، وفي رواية أن ذلك كان في شهر رمضان. لمـا صبر الصائمون لله في الحر على شـدة العطش والظمأ أفرد لهم بابًا من أبواب الجنة وهو باب الريان من دخل شرب ومن شرب لم يظمـأ بعدهـا أبدا، فإذا دخلوا أغلـق على من بعدهم

فلا يدخل منه غيرهم. وقد تحدث أحيانًا حوادث غير معتادة تذكر بالنار كالصواعق والريح الحارة المحرقة للزرع قال الله تعالى: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾ [الرعد:١٣] وقد روي أن الصواعق قطعة من نار تطير من فِي الملك الذي يزجر السحاب عند اشتداد غضبه. وقال الله تعالى: ﴿فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ﴾ [البقرة:٢٦٦] والإعصار: الريح الشديدة العاصف التي فيها نار. والصر: الريح الشديدة البرد وقد عذب الله تعالى قوم شعيب بالظلة، وروي أنه أصابهم حر أخذ بأنفاسهم فخرجوا من البيوت إلى الصحراء فأظلتهم سحابة فوجدوا لها بردا فاجتمعوا تحتها كلهم فأمطرت عليهم نارا فأحرقوا كلهم. فكل هذه العقوبات بسبب المعاصي وهي من مقدمات عقوبات جهنم وأنموذجها. ومما يدل على الجنة والنار أيضًا ما يعجله الله في الدنيا لأهل طاعته وأهل معصيته فإن الله تعالى يعجل لأوليائه وأهل طاعته من نفحات نعيم الجنة وروحها ما يجدونه

ويشـهدونه بقلوبهم ممـا لا يحيط به عبارة ولا تحصره إشـارة، حتى قال بعضهم: إنه لتمر بي أوقات أقول: إن كان أهل الجنة في مثـل ما أنـا فيه فإنهم في عيش طيب. قال أبو سـليمان: أهل الليـل في ليلهم ألذ من أهـل اللهو في لهوهـم. وقال بعضهم: الرضا باب الله الأعظم وجنة الدنيا ومسـتراح العابدين. قال الله تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾ [النحل:٩٧] قال الحسن: نرزقه طاعة يجد لذتهـا في قلبه. أهل التقوى في نعيم حيـث كانوا في الدنيا والبرزخ وفي الآخرة.

العـيـش عيشـهـم والمـلـك ملكهم

مـا الـنـاس إلا هـمـو بـانـوا أواقتربوا

وأما أهل المعاصي والإعراض عن الله فإن الله يعجل لهم في الدنيـا من أنموذج عقوبات جهنم ما يعرف أيضًا بالتجربة والذوق فلا تسأل عما هم فيه من ضيق الصدر وحرجه ونكده وعـما يعجل لهم من عقوبات المعـاصي في الدنيا ولو بعد حينٍ

من زمن العصيان، وهـذا من نفحات الجحيم المعجلة لهم ثم ينتقلـون بعد هـذه الدار إلى أشـد من ذلك وأضيـق، ولذلك يضيـق على أحدهم قـبره حتى تختلف فيـه أضلاعه ويفتح له باب إلى النار فيأتيه من سمومها. قال الله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ [طه:١٢٤] وورد في الحديث المرفوع تفسيرها بعذاب القبر ثم بعد ذلك يصيرون إلى جهنـم وضيقهـا قـال الله تعـالى: ﴿ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴾ [الفرقـان:١٣-١٤]. ومما يدل أيضًا في الدنيـا على وجود النار: الحمى التـي تصيب بني آدم وهي نار باطنة، فمنها نفحة من نفحات سموم جهنم، ومنها نفحة مـن نفحات زمهريرهـا، وقد روي في حديـث خرجه الإمام أحمـد وابـن ماجـه: «**أنها حـظ المؤمن مـن النار**». والمـراد أن الحمى تكفـر ذنوب المؤمن وتنقيه منها كـما ينقي الكير خبث الحديـد وإذا طهـر المؤمن مـن ذنوبه في الدنيا لم يجـد حر النار

إذا مـر عليها يوم القيامة لأن وجدان الناس لحرها عند المرور عليها بحسـب ذنوبهم، فمن طهر من الذنـوب ونقي منها في الدنيا جاز على الصراط كالبرق الخاطف والريح ولم يجد شيئًا مـن حـر النار ولم يحس بها فتقول النـار للمؤمن: جُزْ يا مؤمن فقـد أطفـأ نـورك لهبـي. وفي حديث جابـر المرفوع في مسـند الإمـام أحمد: إنهم يدخلونهـا فتكون عليهم بردًا وسـلامًا كما كانـت عـلى إبراهيم حتى أن للنار ضجيجـا من بردهم. ومن أعظـم ما يذكر بنار جهنـم النار التي في الدنيـا قال الله تعالى: ﴿ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴾ [الواقعـة:٧٣] يعنـي: أن نـار الدنيا جعلها الله تذكرة تذكر بنار جهنم. مر ابن مسـعود بالحداديـن وقـد أخرجـوا حديدا مـن النار فوقـف ينظر إليه ويبكـي. وروي عنه أنه مر على الذين ينفخون الكير فسـقط. وكان أويـس يقف على الحدادين فينظـر إليهم كيف ينفخون الكير ويسـمع صوت النار فيصرخ ثم يسقط، وكذلك الربيع بـن خيثـم. وكان كثـير مـن السـلف يخرجـون إلى الحداديـن

ينظـرون إلى ما يصنعون بالحديد فيبكـون ويتعوذون بالله من النار. ورأى عطاء السـليمي امرأةً قد سـجرت تنورها فغشي عليـه. قال الحسـن: كان عمر ربـما توقد له النار ثـم يدني يده منهـا ثـم يقول: يا ابن الخطاب هل لك عـلى هذا صبر؟! كان الأخنف بن قيس يجيء إلى المصباح فيضع أصبعيه فيه ويقول حس ثم يعاتب نفسـه على ذنوبه. أجج بعـض العباد نارا بين يديه وعاتب نفسه فلم يزل يعاتبها حتى مات. نار الدنيا جزء من سـبعين جزءًا من نار جهنم وغسـلت بالبحر مرتين حتى أشرقت وخف حرها ولولا ذلك ما انتفع بها أهل الدنيا وهي تدعو الله أن لا يعيدها إليها.

قال بعض السـلف: لو أخرج أهـل النار منها إلى نار الدنيا لقالـوا فيهـا ألفي عام؛ يعنـي أنهم كانوا ينامـون فيها ويرونها بـردًا كان عمـر يقول: أكثروا ذكر النار فإن حرها شـديد وإن قعرهـا بعيـد وإن مقامعهـا حديـد. كان ابن عمـر وغيره من

السلف إذا شربوا ماء باردا بكوا وذكروا أمنية أهل النار وأنهم يشتهون الماء البارد وقد حيل بينهم وبين ما يشتهون ويقولون لأهل الجنة: ﴿أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ [الأعراف:٥٠] فيقولون لهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف:٥٠] والمصيبة العظمى حين تطبق النار على أهلها وييأسون من الفرج، وهو الفزع الأكبر الذي يأمنه أهل الجنة: ﴿ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ [الأنبياء:١٠١].



المجلس الثالث

في ذكر فصل الشتاء

خرج الإمام أحمد من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «**الشتاء ربيع المؤمن**»، وخرجه البيهقي وغيره وزاد فيه: «**طال ليله فقامه وقصر نهاره فصامه**». إنما كان الشتاء ربيع المؤمن لأنه يرتع فيه في بساتين الطاعات ويسرح في ميادين العبادات وينزه قلبه في رياض الأعمال الميسرة فيه كما ترتع البهائم في مرعى الربيع، فتسمن وتصلح أجسادها، فكذلك يصلح دين المؤمن في الشتاء بما يسر الله فيه من الطاعات؛ فإنّ المؤمن يقدر في الشتاء على صيام نهاره من غير مشقة ولا كلفة تحصل له من جوع ولا عطش؛ فإن نهاره قصير بارد فلا يحس فيه بمشقة الصيام. وفي المسند والترمذي عن النبي ﷺ قال: «**الصيام في الشتاء الغنيمة الباردة**» وكان أبو هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يقول: ألا أدلكم على الغنيمة الباردة؟ قالوا: بلى فيقول: الصيام في الشتاء. ومعنى كونها غنيمة باردة

أنها غنيمة حصلت بغير قتال ولا تعب ولا مشقة، فصاحبها يحوز هذه الغنيمة عفوا صفوا بغير كلفة. وأما قيام ليل الشتاء فلطوله يمكن أن تأخذ النفس حظها من النوم ثم تقوم بعد ذلك إلى الصلاة فيقرأ المصلي ورده كله من القرآن وقد أخذت نفسه حظها من النوم، فيجتمع له فيه نومه المحتاج إليه مع إدراك ورده من القرآن فيكمل له مصلحة دينه وراحة بدنه. ومن كلام يحيى بن معاذ: الليل طويل فلا تقصره بمنامك والإسلام نقي فلا تدنسه بآثامك، بخلاف ليل الصيف فإنه لقصره وحره يغلب النوم فيه، فلا تكاد تأخذ النفس حظها بدون نومه كله فيحتاج القيام فيه إلى مجاهدة وقد لا يتمكن فيه لقصره من الفراغ من ورده من القرآن. ويروى عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: مرحبا بالشتاء تنزل فيه البركة ويطول فيه الليل للقيام ويقصر فيه النهار للصيام، وروي عنه مرفوعًا ولا يصح رفعه. وعن الحسن قال: نعم زمان المؤمن الشتاء ليله طويل يقومه ونهاره قصير يصومه. وعن عبيد بن

عمير أنه كان إذا جاء الشتاء قال: يا أهل القرآن طال ليلكم لقراءتكم فاقرأوا وقصر النهار لصيامكم فصوموا. قيام ليل الشتاء يعدل صيام نهار الصيف؛ ولهذا بكى معاذ عند موته وقال: إنما أبكي على ظمأ الهواجر وقيام ليل الشتاء ومزاحمة العلماء بالركب عند حلق الذكر. وقال معضد: لولا ثلاث: ظمأ الهواجر وقيام ليل الشتاء ولذاذة التهجد بكتاب الله ما باليت أن أكون يعسوبا. القيام في ليل الشتاء يشق على النفوس من وجهين: أحدهما من جهة تألم النفس بالقيام من الفراش في شدة البرد. قال داود بن رشيد: قام بعض إخواني إلى ورده بالليل في ليلة شديدة البرد فكان عليه خلقان فضربه البرد فبكى فهتف به هاتف: أقمناك وأنمناهم وتبكي علينا!! خرجه أبونعيم. والثاني: بما يحصل بإسباغ الوضوء في شدة البرد من التألم، وإسباغ الوضوء في شدة البرد من أفضل الأعمال، وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «**ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به**

الدرجات؟» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «**إسباغ الوضوء على المكاره وكثرة الخطا إلى المساجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلك الرباط**». وفي حديث معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ أنه رأى ربه عَزَّوَجَلَّ يعني في المنام فقال له: يا محمد فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قال: «**في الدرجات والكفارات؟**» قال: والكفارات: إسباغ الوضوء في الكريهات ونقل الأقدام إلى الجمعات وفي رواية: الجماعات وانتظار الصلاة بعد الصلاة. من فعل ذلك عاش بخير ومات بخير وكان من خطيئته كيوم ولدته أمه. والدرجات: إطعام الطعام وإفشاء السلام والصلاة بالليل والناس نيام، وذكر الحديث خرجه الإمام أحمد والترمذي وفي بعض الروايات: «**إسباغ الوضوء في السبرات**» والسبرة: شدة البرد. إسباغ الوضوء في شدة البرد من أعلى خصال الإيمان، روى ابن سعد بإسناده: أن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وصى ابنه عند موته فقال له: يا بني عليك بخصال الإيمان قال: وما هي؟ قال: الصوم في شدة الحر أيام الصيف

وقتل الأعداء بالسيف والصبر على المصيبة وإسباغ الوضوء في اليوم الشاتي وتعجيل الصلاة في يوم الغيم وترك ردغة الخبال فقال: ما ردغة الخبال؟ قال: شرب الخمر. وروى الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير قال: ست من كن فيه فقد استكمل الإيمان: قتال أعداء الله بالسيف والصيام في الصيف وإسباغ الوضوء في اليوم الشاتي والتبكير بالصلاة في يوم الغيم وترك الجدال والمراء وأنت تعلم أنك صادق والصبر على المصيبة».

وفي كتاب الزهد للإمام أحمد عن عطاء بن يسار رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: يا رب من هم أهلك الذين هم أهلك تظلهم في ظل عرشك؟ قال: هم البرية أيديهم الطاهرة قلوبهم الذين يتحابون لجلالي الذين إذا ذكرت ذكروني وإذا ذكرت ذكرت بذكرهم الذين يسبغون الوضوء في المكاره وينيبون إلى ذكرى كما تنيب النسور إلى أوكارها ويكلفون بحبي كما يكلف الصبي بحب الناس ويغضبون لمحارمي

إذا استحلت كما يغضب النمر إذا حرب وقد روي عن داود بن رشيد قال: قام رجل ليلة باردة ليتوضأ للصلاة فأصاب الماء باردا فبكى فنودي: أما ترضى أنا أنمناهم وأقمناك حتى تبكي علينا خرجه ابن السمعاني. معالجة الوضوء في جوف الليل للتهجد موجب لرضا الرب ومباهات الملائكة، ففي شدة البرد يتأكد ذلك، ففي المسند وصحيح ابن حبان عن عقبة بن عامر رَضِيَٱللَّهُعَنهُ عن النبي 0 قال: «**رجلان من أمتي يقوم أحدهما من الليل فيعالج نفسه إلى الطهور وعليه عقد فيتوضأ فإذا وضأ يديه انحلت عقدة وإذا وضأ وجهه انحلت عقدة وإذا مسح رأسه انحلت عقدة وإذا وضأ رجليه انحلت عقدة فيقول الرب عَزَّوَجَلَّ للذين وراء الحجاب: انظروا إلى عبدي هذا يعالج نفسه ما سألني عبدي هذا فهو له**»، وفي حديث عطية عن أبي سعيد عن النبي ﷺ: «**إن الله يضحك إلى ثلاثة نفر: رجل قام من جوف الليل فأحسن الطهور ثم صلى، ورجل نام وهو ساجد، ورجل في كتيبة منهزمة على**

فرس جواد لو شاء أن يذهب لذهب». قال أبو سليمان الداراني: كنت ليلة باردة في المحراب فأقلتني البرد فخبأت إحدى يدي من البرد، وبقيت الأخرى ممدودة فغلبتني عيني فهتف بي هاتف: يا أبا سليمان قد وضعنا في هذه ما أصابها ولو كانت الأخرى لوضعنا فيها، قال: فآليت أن لا أعود إلا ويداي خارجتان حرا كان أوبردا. قال مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كان صفوان بن سليم يصلي يعني بالليل في الشتاء في السطح وفي الصيف في بطن البيت يتيقظ بالحر والبرد حتى يصبح ثم يقول: هذا الجهد من صفوان وأنت أعلم، وإنه لترم رجلاه حتى يعود مثل السقط من قيام الليل ثم يظهر فيها عروق خضر. وكان صفوان وغيره من العباد يصلون في الشتاء بالليل في ثوب واحد ليمنعهم البرد من النوم. ومنهم من كان إذا نعس ألقى نفسه في الماء ويقول: هذا أهون من صديد جهنم. كان عطاء الخرساني ينادي أصحابه بالليل يا فلان ويا فلان ويا فلان قوموا فتوضئوا وصلوا، فقيام هذا الليل وصيام هذا النهار

أهـون مـن شرب الصديـد ومقطعـات الحديد غـدا في النار، الوحا الوحا النجا النجا. كان قوم من العباد يبيتون في مسجد وكانـوا يتهجدون في الليل فاستيقظ واحـد منهم ليلة فوجد إخوانه نيامًا فسمع هاتفا يهتف من جانب المسجد:

أيا عجبا للناس من قرت عيونهم
مطاعم غمض بعدها الموت منتصب
وطول قيام الليل أيسر مؤنة
وأهون من نار تفور وتلتهب

وفي الحديث الصحيح أن ابن عمر رأى في منامه كأن آتيًا فانطلق به إلى النار حتى رآها ورأى فيها رجالًا يعرفهم معلقين بالسلاسل فأتاه ملك فقال له: لن تراع لست من أهلها، فقص ذلك على أخته حفصة فقصته حفصة على رسول الله ﷺ فقال: «**نعم الرجل عبد الله لو كان يصلي من الليل**» فكان ابن عمر لا ينام من الليل إلا قليلًا. قال الحسن: أفضل العبادة الصلاة في جوف الليل، وقال: هو أقرب ما يتقرب به إلى الله عَزَّوَجَلَّ،

وقال: ما وجدت في العبادة أشد منها. ورؤي سلمة بن كهيل في المنام فقال: وجدت أفضل الأعمال قيام الليل ما عندهم أشرف منه. ورأى بعض السلف خيامًا ضربت فسأل لمن هي فقيل: للمتهجدين بالقرآن، فكان بعد ذلك لا ينام.

ومن الصالحين من كان يلطف به في الحر والبرد كما دعا النبي ﷺ لعلي: «أن يذهب الله عنه الحر والبرد»، فكان يلبس في الشتاء ثياب الصيف وفي الصيف ثياب الشتاء ولا يجد حرًا ولا بردًا. كان بعض التابعين يشتد عليه الطهور في الشتاء فدعا الله عَزَّوَجَلَّ فكان يؤتى بالماء في الشتاء وله بخار من حره. رأى أبو سليمان في طريق الحج في شدة البرد شيخًا عليه خلقان وهو يرشح عرقًا فعجب منه وسأله عن حاله، فقال: إنما الحر والبرد خلقان لله عَزَّوَجَلَّ فإن أمرهما أن يغشياني أصاباني وإن أمرهما أن يتركاني تركاني، وقال: أنا في هذه البرية من ثلاثين سنة يلبسني في البرد فيحا من محبته ويلبسني في الصيف بردًا

مـن محبتـه. وقيل لآخر وعليـه خرقتان في يوم برد شـديد: لو استترت في موضع يكنك من البرد فأنشد:

ومحـسـن ظـني أنـني في فنـائـه

وهـل أحـد فـي كـنـه يـجـد الـبـردا

وأمـا من يجد الـبرد وهم عامة الخلق فإنـه يشرع لهم دفع أذاه بما يدفعه لباس وغيره.

وقـد امتن الله على عباده بأن خلـق لهم من أصواف بهيمة الأنعـام وأوبارها وأشـعارها ما فيه دفء لهـم، قال الله تعالى: ﴿وَٱلْأَنْعَـٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَـٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [النحل:٥] وقـال الله تعـالى: ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَـٰثًا وَمَتَـٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ [النحل:٨٠]، وروى ابـن المبـارك عن صفوان بن عمرو عن سـليم بن عامر قال: كان عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ إذا حضر الشتاء تعاهدهم وكتب لهم بالوصية: إن الشـتاء قـد حضر وهو عدو فتأهبوا له

أهبته من الصوف والخفاف والجوارب واتخذوا الصوف شعارًا ودثارًا، فإن البرد عدو سريع دخوله بعيد خروجه. وإنما كان يكتب عمر إلى أهل الشام لما فتحت في زمنه فكان يخشى على من بها من الصحابة وغيرهم ممن لم يكن له عهد بالبرد أن يتأذى ببرد الشام، وذلك من تمام نصيحته وحسن نظره وشفقته وحياطته لرعيته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وروي عن كعب قال: أوحى الله تعالى إلى داود عَلَيْهِ السَّلَامُ أن تأهب لعدو قد أظلك قال: يا رب من عدوي وليس بحضرتي عدو؟ قال: بلى الشتاء. وليس المأمور به أن يتقي البرد حتى لا يصيبه منه شيء بالكلية؛ فإن ذلك يضر أيضًا، وقد كان بعض الأمراء يصون نفسه من الحر والبرد بالكلية حتى لا يحس بهما بدنه فتلف باطنه وتعجل موته؛ فإن الله بحكمته جعل الحر والبرد في الدنيا لمصالح عباده فالحر لتحلل الأخلاط والبرد لجمودها، فمتى لم يصب الأبدان شيء من الحر والبرد تعجل فسادها،

ولكـن المأمور به اتقاء ما يؤذي البـدن من الحر المؤذي والبرد المؤذي المعدودان من جملة أعداء ابن آدم.

وقـد قال الله تعـالى في صفة أهل الجنـة: ﴿ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴾ [الإنسـان:١٣]، فنفـى عنهم شـدة الحر والـبرد. قال قتـادة: علم الله أن شـدة الحـر تؤذي وشـدة البرد تـؤذي فوقاهـم أذاهما جميعًـا. قـال أبوعمروبن العلاء: إني لأبغض الشـتاء لنقص الفروض وذهاب الحقوق وزيـادة الكلفـة عـلى الفقراء. وقـد روي في حديـث مرفوع: «**إن الملائكـة تفـرح بذهـاب الشـتـاء**»؛ لما يدخل فيـه على فقراء المؤمنـين مـن الشـدة ولكـن لا يصـح إسـناده، وروي أيضًا مرفوعا: «**خير صيفكم أشده حرا وخير شتائكم أشده بردا وإن الملائكة لتبكي في الشتاء رحمة لبني آدم**» وإسناده أيضًا باطل. وقـال بعض السـلف: البرد عدو الدين يشـير إلى أنه يُفتِّر عن كثـير من الأعمال ويثبط عنها فتكسـل النفـوس بذلك. وقال

بعضهم: خلقت القلوب من طين فهي تلين في الشتاء كما يلين الطين فيه. قال الحسن: الشتاء ذَكَرٌ فيه اللقاح والصيف أنثى فيه النتاج يشير إلى أن الصيف تنتج فيه المواشي والشجر، والصيف عند العرب هو الربيع، وأما الذي تسميه الناس: الصيف فالعرب يسمونه القيظ، ففي الشتاء تفور الحرارة إلى باطن الشجر فتنعقد مواد الثمر فتظهر في الربيع مباديها، فتزهر الشجر ثم تورق ثم إذا ظهرت الثمار قوي حر الشمس لإنضاجها. الإيثار في الشتاء للفقراء بما يدفع عنهم البرد له فضل عظيم. خرج صفوان بن سليم في ليلة باردة بالمدينة من المسجد فرأى رجلا عاريا فنزع ثوبه وكساه إياه فرأى بعض أهل الشام في منامه أن صفوان بن سليم دخل الجنة بقميص كساه فقدم المدينة فقال: دلوني على صفوان فأتاه فقص عليه ما رأى. رأى مسعر أعرابيا يتشرق في الشمس وهويقول:

جـاء الـشـتـاء ولـيـس عـنـدي درهـم
ولـقـد يـخـص بـمـثـل ذاك المسلم
قـد قـطـع الـنـاس الجـبـاب وغيرها
وكـأنـنـي بـفـنـاء مـكـة مـحـرم

فنزع مسعر جبته فألبسه إياها. رفع إلى بعض الوزراء الصالحين أن امرأة معها أربعة أطفال أيتام وهم عراة جياع فأمر رجلا أن يمضي إليهم وحمل معه ما يصلحهم من كسوة وطعام ثم نزع ثيابه وحلف: لا لبستها ولا دفئت حتى تعود وتخبرني أنك كسوتهم وأشبعتهم، فمضى وعاد فأخبره: أنهم اكتسوا وشبعوا وهو يرعد من البرد فلبس حينئذ ثيابه. خرج الترمذي من حديث أبي سعيد مرفوعًا: «**من أطعم مؤمنًا على جوع أطعمه الله يوم القيامة من ثمار الجنة، ومن سقاه على ظمأ سقاه الله من الرحيق المختوم، ومن كساه على عري كساه الله من خضر الجنة**»، وروى ابن أبي الدنيا بإسناده عن ابن مسعود قال: «يحشر الناس يوم القيامة أعرى ما كانوا قط وأجوع ما

كانـوا قـط وأظمأ ما كانوا قط، فمن كسـا لله عَزَّوَجَلَّ كسـاه الله ومن أطعم لله أطعمه الله ومن سـقا لله سـقاه الله ومن عفا لله أعفاه الله».

ومـن فضائل الشـتاء: أنـه يذكر بزمهريـر جهنم ويوجب الاسـتعاذة منها، وفي حديث أبي هريرة وأبي سـعيد عن النبي ﷺ قـال: «**إذا كان يوم شـديد البرد، فإذا قـال العبد: لا إله إلا الله ما أشـد برد هذا اليوم: اللهم أجرني من زمهرير جهنم قـال الله تعـالى لجهنـم: إن عبـدًا من عبـادي اسـتجار بي من زمهريرك وإني أشـهدك أني قد أجرته. قالوا ما زمهرير جهنم قـال: بيت يلقى فيه الكفر فيتميز من شـدة البـرد**». قام زبيد اليامـي ذات ليلة للتهجد فعمد إلى مطهرة له كان يتوضأ منها فغمـس يده في المطهرة فوجـد الماء باردًا شـديدًا كاد أن يجمد من شـدة برده فذكـر الزمهرير ويـده في المطهـرة فلم يخرجها حتـى أصبح، فجاءته جاريته وهو عـلى تلك الحال فقالت: ما شـأنك يا سـيدي لم لا تصلي الليلة كما كنت تصلي وأنت قاعد

هنا على هذه الحالة؟ فقال: ويحك إني أدخلت يدي في هذه المطهرة، فاشتد عليَّ برد الماء فذكرت به الزمهرير، فوالله ما شعرت بشدة برده حتى وقفت علي فانطوي لا تحدثي بهذا أحدًا ما دمت حيًا، فما علم بذلك أحد حتى مات رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ: «**إن لجهنم نفسين: نفسًا في الشتاء ونفسًا في الصيف، فأشد ما تجدون من البرد من زمهريرها، وأشد ما تجدون من الحر من سمومها**»، وروي عن ابن عباس قال: يستغيث أهل النار من الحر فيغاثون بريح باردة يصدع العظام بردها فيسألون الحر. وعن مجاهد قال: يهربون إلى الزمهرير فإذا وقعوا فيه حطم عظامهم حتى يسمع لها نقيض. وعن كعب قال: إن في جهنم بردًا هو الزمهرير يسقط اللحم حتى يستغيثوا بحر جهنم. وعن عبد الملك بن عمير قال بلغني: أن أهل النار سألوا خازنها أن يخرجهم إلى جانبها فأخرجوا فقتلهم البرد، والزمهرير حتى رجعوا إليها فدخلوها مما وجدوه من البرد، وقد قال الله

عَزَّوَجَلَّ: ﴿ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴾ [النبأ:٢٤-٢٦]، وقال الله تعالى: ﴿ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴾ [ص:٥٧] قال ابن عباس: الغساق: الزمهرير البارد الذي يحرق من برده. وقال مجاهد: هو الذي لا يستطيعون أن يذوقوه من برده. وقيل: إن الغساق: البارد المنتن، أجارنا الله تعالى من جهنم بفضله وكرمه!! يا من تتلى عليه أوصاف جهنم ويشاهد تنفسها كل عام حتى يحس به ويتألم، وهو مصر على ما يقتضي دخولها مع أنه يعلم، ستعلم إذا جيء بها تقاد بسبعين ألف زمام من يندم، ألك صبر على سعيرها وزمهريرها؟ قل وتكلم، ما كان صلاحك يرجى والله أعلم.

كم يكون الشتاء ثمّ المصيف

وربيع يمضي ويأتي الخريف

وارتحال من الحرور إلى البرد

وسيف الردى عليك منيف

يا قليل المقام في هذه الدنيا

إلى كم يغرك التسويف

يا طالب الزائل حتى متى

قلبك بالزائل مشغوف

عجبًا لامرىء يذل لذي الدنيا

ويكفيه كلّ يوم رغيف

